مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد..

فإن الإسلام يحرِّم الذل، ويكره أن يكون أتباعه إمعات؛ يعيشون في كنف المسكنة والخضوع.. وهو بريء ممن يتخشعون ويتذللون ويبالغون في التملق والمداهنة.

ولا ينكر الإسلام، أن يخاف المسلم، ويصيبه التردد والهلع، فهذا في طبع الإنسان وخلقته، ولا يستثنى منه أحدٌ حتى الأنبياء.. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].. غير أنه ينكر أن يكون ذلك صفة واضحة في المسلم، يتميز بها، ويبنى أفعاله وسلوكه عليها، فيتخلى -من ثم- عن مبادئه ومعتقداته، ويعطى العدو الفرصة في الاستعلاء عليه وبث الرهبة في صدره.. فالمؤمن إن تردد في موقف؛ سرعان ما يلملم نفسه، ويقوى ذاته، ويعود به إيمانه إلى حيث: الحق والقوة والحرية.

أما من يعطى الدنية من نفسه، ويبالغ في تصغير ذاته؛ فلا يستحق أن يُقام له وزن أو أن تكون له قيمة.. مر رجل على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وقد بالغ في الخضوع، فقال له: ألست مسلمًا؟ قال:

بلى، قال: فارفع رأسك، وامدد عنقك، فإن الإسلام عزيز منيع.

وتحريم الإسلام للذل، نابعٌ من عقيدته، التى تمنع اللجوء لغير الله، أو سؤال أحد سواه، واليقين التام فى القضاء والقدر، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الدنيا كلها لو اجتمعت للإنسان أو عليه؛ فلن تستطيع أن تقدم له شيئًا أو تؤخر عنه شيئًا إلا بإذن الله -سبحانه-، وفى هذا يقول النبى ﷺ: «**من أعطى الذلة من نفسه طائعًا غير مكره فليس منى**» [الطبرانى]، ويقول: «**من جلس إلى غنى فتضعضع عنده لينال مما فى يديه، فقد ذهب ثلثا دينه ودخل النار**» [الطبرانى].

إن الاستعلاء بالإيمان، يضمن مجتمعًا سليمًا من الآفات، قادرًا على نصرة الضعيف، وإدخال السرور على الحزين، والأخذ على يد الظالمين، والطغاة والفاسدين، رغم ما يصيب القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، من أذى وعنت.. لكنه الواجب الذى لا يكون المؤمن مؤمنًا إلا به، يقول النبى ﷺ: «**إن الناس إذا لم يأخذوا على يد الظالم، أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده**» [الترمذى].

والاستعلاء بالإيمان، ليس معناه التعالى على الآخرين وظلمهم، إنما يعنى البذل والجهاد، والجهر بالحق، من أجل إنصاف الضعفاء

والمهضومين، فالمؤمنون لا يعرفون البغى، ولا العدوان، وإنما يضحون بأرواحهم وأموالهم لإسعاد الآخرين، ونصرة المظلومين، ودفع الأذى عن المستضعفين.. ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١]، والمسلم متواضع لإخوانه، ذليل معهم، لكنه نار حارقة مع أعداء الله، يطلب الموت كما يطلب غيره الحياة.. ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..**﴾ [الفتح: ٢٩].

وفى هذا الكتاب ما يزيد على عشرين فصلاً، حول معانى الاستعلاء بالإيمان، بما يؤكد أننا أعزة بهذا الدين، أذلة إن التمسنا العزة فى غيره.. وبما يؤكد أيضًا أن هذه الأمة هى -بالفعل- خير أمة أخرجت للناس؛ فمازالت -جيلاً وراء جيل- تقدم من أبنائها من يصطدم بالباطل، ويدوى صوته بالحق، غير خائف أو وجل.. حتى رأينا وسمعنا فى أيامنا هذه من يردد قول خبيب:

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

إن هذه صرخة لشباب ورجال الأمة، كى يحذروا التنازل والاستدراج، والسلبية والميوعة والخنوع، وأن يقوموا لله، آمرين

بالمعروف، ناهين عن المنكر، صادعين بالحق، لا يخافون في الله لومة لائم، رافعين شعار.. ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].. آملين أن يصلح الله بهم البشرية وأن يملأوا الدنيا عدلاً كما مُلئت جورًا وظلمًا..

الله أسأل أن يجعل هذا العمل لي، وألا يجعله عليَّ.. وأن ينفع به سائر المسلمين.. آمين، والحمد لله رب العالمين.

عامر شماخ

القاهرة في:
جماد آخر ١٤٣٠هـ - يونية ٢٠٠٩م